سُورَةُ الحِجر

مكية وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

﴿الٓر﴾ اسم للسورة أي هذه السورة مسمَّاة بـ: الٓر[1] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب الكامل في الفصاحة والبيان، الذي يعجز عنه البشر، الجدير بأن يسمى الكتاب الكامل، في أسلوبه وأحكامه ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ عظيم الشأن، وتنكيرُه للتفخيم ﴿مُّبِينٍ﴾ أي واضح بيّن، لا خلل فيه ولا اضطراب، فارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾.

﴿رُّبَمَا﴾ ربَّ حرف جر، و «ما» كافة مصححة لدخوله على الفعل، وربَّ على كثرة وقوعها في كلام العرب، لم تقع في القرآن إلاَّ في هذه الآية، وهي للتقليل غالباً، وللتكثير نادراً كما في هذه الآية[2] ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

(١) قدَّمنا فيما مضى أن الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، للتنبيه على إعجاز القرآن، كأنه يقول: هذا الكتاب المعجز العجيب كلام الله تعالى، وهو منظوم من أمثال هذه الحروف المقطعة من ألف ولام وراء وأمثالها فإذا شككتم فيه فأتوا بمثله.

(٢) أنكر الزجاج أن تجيء «ربَّ» للتكثير، وقال: هذا ضدُّ ما تعرفه العرب، وهي على أصلها، للتقليل، والآية خارجة مخرج الوعيد، وكذلك قال النحاس في تفسيره =

﴿كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ أي سيتمنى الكفار محققاً يوم القيامة أن لو كانوا مسلمين في الدنيا، ويندمون على عدم الإيمان، كما جاء في الحديث الشريف «إن ناساً من أمتي يُعذَّبون بذنوبهم، ثم يعيِّرهم أهلُ الشرك، ويقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نَفَعكمَ؟ فلا يبقى موحِّد إلاَّ أخرجه الله تعالى من النار، ثم قرأ ﷺ الآية»[1].

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

﴿ذَرْهُمْ﴾ أي دعْهم واتركهم عما هم عليه، إذ لا سبيل إلى ارعوائهم، والمراد التخلية بينهم وبين شهواتهم، كأنه قيل: خلِّهم وشأنهم ﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم الأمل عن التفكر فيما يصيرون إليه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾ شروع في بيان سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ من القرى بالخسف بها وبأهلها، كما فُعل ببعضها ﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن ﴿كِتَابٌ﴾ أجل مقدّر، مكتوب في اللوح بحيث لا يمكن تبديله، والمراد به أجل إهلاكهم ﴿مَّعْلُومٌ﴾ لا يُنسى ولا يغفل عنه.

= معاني القرآن ٤/٨ حيث قال: فأمّا معنى «ربَّ» ههنا فإنما هي في كلام العرب للتقليل، وأن فيها معنى التهديد، وهذا تستعمله العرب كثيراً لمن تتوعده وتهدده، يقول الرجل للآخر: ربما ندمتَ على ما تفعل، ولا يشكّون في ندمه ولا يقصدون تقليله، بل حقيقة المعنى أنه يقول: لو كان هذا مما يقلُّ، أو يكون مرة واحدة لكان ينبغي أن لا تفعله. قال: وأما قول من قال إن «ربَّ» تقع للتكثير فلا يعرف في كلام العرب، والدليل على أنه وعيد وتهديد قوله سبحانه بعده: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾. اهـ وهو كلام نفيس.

(١) الحديث أخرجه الطبراني وابن مردويه، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٣٠٧.

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ من الأمم المهلكة وغيرهم، أجلها المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء أوانه ﴿ وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ أي وما يتأخرون عنه برهة من الزمن، واستدل بالآية على أن كل من مات أو قُتل،، فإنما هو ميّتٌ بأجله.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ نادوا به الرسول ﷺ والقائلون هم مشركو مكة، وذلك لغاية تماديهم في العتو، خاطبوا به الرسول ﷺ لا تسليماً بنبوته بل استهزاءً، أي يا من تدّعي الرسالة إنك لتقول قول المجانين، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً يستبعده: أنت مجنون، وقد سبقهم إلى نظيره فرعون بقوله في حق موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ ﴾.

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا ﴾ كلمةُ «لو» عند تركبها مع «ما» تفيد ما تفيده عند تركبها مع «لا» من معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى التحضيض، والمراد هنا التحضيضُ، أي هلاَّ تأتينا ﴿ بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ يشهدون لك ويساعدونك في الإنذار، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرَاً﴾؟[1] ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ في دعواك أنك رسول الله؟ فإن قدرة الله على ذلك محققة!! قال تعالى رداً عليهم:

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ الضمير للجلالة من التنزيل، وهذا مسوق منه سبحانه إلى نبيه ﷺ جواباً لهم عن مقالتهم المحكية، ورداً لاقتراحهم الباطل، الصادر عن محض الكبرياء والعناد، فالملائكة لعلو رتبهم، أعلى من أن يكون مقصد حركاتهم، أولئك المعاندين لرسل الله، وإنما لهم مهمة أسمى ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أي بالوجه الذي قدَّره سبحانه، واقتضته حكمته، والذي اقترحوه من التنزيل، لأجل الشهادة لديهم، ومنزلتهم في الحقارة والهوان منزلتهم، لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلاً، وإنما الذي يدخل في حقهم هو التنزيل في التعذيب والاستئصال، كما فُعل بأضرابهم من الأمم السالفة، ولو فُعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ جزاء الشرط المقدّر، تقديره: ولو نزّلنا الملائكة ما كانوا أيضاً منظرين، كدأب سائر الأمم المكذبة، مع استحقاقهم لذلك، ومقتضى الحكمة التشريعية والتكوينية، أن يكون الملائكة منزلين بصورة البشر، وتنزيلهم كذلك يوجب اللبس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[1] فلا ينتفعون، وما كانوا إذاً منظرين لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم، لأنه قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم، أنا لم نأتهم بآية اقترحوها، إلاّ والعذاب في إثْرها إن لم يؤمنوا، فقد جرى قلم القضاء، بتأخير عذاب هؤلاء حسبما أُجمل في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا﴾ فلم يُهلكوا.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم، أي نحن بعظيم شأننا، وعلو جنابنا نزّلنا عليك يا محمد هذا القرآن العظيم، المعجز في

(١) سورة الأنعام، آية: ٩.

بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كل ما يقدح فيه، كالتحريف، والزيادة، والنقصان، وغير ذلك، حتى إن الشيخ المهيب، لو غيَّر نقطة يردُّ عليه الصبيان، ويقولون له: الصوابُ كذا، ولم يحفظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك، وتولّى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أولاً وآخراً، ومصوناً عن جميع جهات التحريف، مع أن الدواعي من الملحدين، واليهود، والنصارى متوافرة، ومتهالكة على إفساده[1]، فكان ذلك الحفظ والحماية من أعظم المعجزات، وتحقق بذلك الوعد الربّاني، وجاءت الجملة الثانية اسمية ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ للدلالة على دوام الحفظ، فهو محفوظ بحفظ الله إلى قيام الساعة.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ أي أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً، كما روي عن ابن عباس، وإنما لم يُذكر لدلالة السياق والسِّباق ﴿فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي فرقهم وطوائفهم، وتُطلق على الأعوان، وهي المتفقة على طريقة ومذهب، وأصبح لفظ «الشيعة» يطلق على قوم مخصوصين، يزعمون أنهم أتباع علي رضي الله عنه.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾.

---

(١) تكفل الله جلَّ ثناؤه بحفظ هذا القرآن المجيد، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان، ولا على التبديل فيه والتغيير، كما جرى لغيره من الكتب كالتوراة والإنجيل، المحرَّفة بالنص القاطع ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ وذلك لأن الله تعالى وَكَلَ حفظَها إلى أهلها كما قال سبحانه: ﴿بمَا استحفظوا من كتاب الله﴾ أي أُمروا بصيانته وحفظه، فحرّفوا وبدّلوا، وأما القرآن العظيم فقد تكفل ربُّ العزة والجلال بحفظه، فلم يستطع أحد من البشر التلاعب فيه، بالتحريف والتبديل على كثرة الأعداء من اليهود والنصارى والملحدين.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أي ما أتى شيعة من الشيع من رسول خاص بها ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، بأن هذه شنشنة جُهَّال الأمم مع المرسلين، والسبب الذي يحمل الجهَّال على هذا أمور:

الأول: أنهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات، لغطرستهم وكبريائهم.

الثاني: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من عاداتهم الرديئة، وذلك شاق على الطباع.

الثالث: أن الرسول قد يكون فقيرا، فالمتنعمون يثقل عليهم اتّباعه، ونحو ذلك من الأمور.

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك السلك والإدخال الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم، وبما جاؤوا من الكتب ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي ندخل الباطل والضلال ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي في قلوب مشركي مكة، وغيرهم من الضالين المستهزئين بأنبياء الله، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب الضالين من قومك، والسلكُ: إدخال شيء في شيء، كالخيط في المِخْيَط، وفيه دليل على أن الله عزَّ وجلَّ يدخل الضلال في قلوبهم كما اختاروه، لأنهم من أهل الخذلان، ليس عندهم استعداد لقبول الحق.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي لا يصدّقون بالقرآن العظيم، ولو جاءتهم كل آية بيّنة ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي وقد مضت طريقة الأولين، وعادة الله فيهم بإهلاك الطغاة المجرمين، حين كذبوا رسلهم واستهزؤوا بهم.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿ بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي باباً يصعدون فيه إلى السّماء، ويسَّرنا لهم الرقيَّ والصعود إليه ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ ﴾ في ذلك الباب، يُقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً، كما يقال بات يفعل كذا إذا فعله بالليل ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون فيرون ما فيها من الملائكة والعجائب طول نهارهم.

﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ لَقَالُوٓاْ ﴾ لفرط عنادهم، وغلوّهم في المكابرة ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ أي سُدَّتْ من الإحساس، ومنعت عن الإبصار حقيقة، وما نراه تخييل لا حقيقة له، وهو من السكر بالفتح ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ بذلك، كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات، وفي هذه الآية دلالة على أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين باغين، فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه، لكنهم قوم سجيتهم العناد، ثم إنه تعالى بعد أن ذكر حال منكري النبوّة، ذكر دلائل التوحيد، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ أي منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب العظيمة ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ أي السماء بالنجوم ﴿ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي للمتفكرين المستدلين بذلك على قدرته تعالى، فتزيينها ظهورها على نظام بديع، مستتبع للآثار الحسنة.

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ فلا يقدر أن يصعد إلى السماء، ويقف

على أحوالها، والرجيمُ: المطرودُ عن الخيرات، المرميُّ بالنجوم والمراد بحفظها: منعُهُم عن التعرض لها، والوقوف على ما فيها من أحاديث الملائكة والوحي.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ ﴾ استراق السمع اختلاسه سراً، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾ والمراد بالسمع: المسموعُ ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ومعنى أتبعه تبعه، والشهاب الشعلةُ الساقطة من النار الموقدة، ومن العارض في الجو، والمبين الظاهر أمره للمبصرين. فإن قيل: جعلُ الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها، وجعلها رجوماً يقتضي زوالها؟ قلنا: جعلها رجوماً للشياطين، ليس بأجرام الكواكب، بل بِشُعَلٍ من الكواكب، وما ذاك إلا كقبس أُخذ من نار، كما قال تعالى: ﴿يجد لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ بسطناها، والظاهر أن المراد بسطها وتوسيعها ليحصل بها الانتفاع لمن حلّها، ولا يلزم من ذلك نفي كرويتها، لما أن الكرة العظيمة لعظمها تُرى كالسطح المستوي ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ مقدَّرٍ بمقدارٍ معيَّن تقتضيه حكمته، ومستحسن مناسب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس وغيرهما

مما يتعلق به البقاء ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ العيالِ، والخَدَم، والمماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم، فإن الله يرزقهم وإياهم، والمعنى: جعلنا لكم معايش، ولمن لستم له برازقين من الخَدَم والعبيد.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد، ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي إلاَّ عندنا خزائنه ومستودعاته، والخزائن جمع خزانة بمعنى المخزن، وهو ما يُحفظ فيه نفائس الأموال، شُبّهت المقدورات التي قدَّرها الله بنفائس الأموال المخزونة على طريقة الاستعارة التخييلية، وأنه تعالى حافظها والمتولي تدبيرها. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي وما نوجد وما نكوِّنُ شيئاً من تلك الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلاَّ ملتبساً بمقدار معيَّن، تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المشيئة، والمراد من الإنزالِ: الإحداثُ والإبداع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وإنما عبر عن إيجاد ذلك بالتنزيل، لما أنه بالتفضل من العالم العلوي إلى العالم السفلي، وجيء بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي حوامل، شبَّه الريح التي جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر بالحامل، كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقحات للشجر، تلقّ الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه، وتلقح السحاب فيدرُّ بالماء ويمطر ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعدما أنشأنا سحاباً ماطراً ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سقيا، تسقون به مزارعكم ومواشيكم، وهو أبلغ من سقيناكم لما فيه من الدلالة على جعل الماء معداً لهم ينتفعون به متى

شاؤوا يُقال: سقيتهُ إذا كان بيدك، وأسقيته إذا جعلته له سقيا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي ولستم بقادرين على حفظه وخزنه، بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم، في العيون والآبار والأنهار سقيا لكم، مع أن طبيعة الماء تقتضي الغَوْر، فوقوفُه ومكوثه في الأرض لا بدَّ له من مخصّص، وذلك يدلُّ على مدبِّر حكيم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، وقد يعم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنباتات، وتقديم الضمير للحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون إذا ماتت الخلائق كلها، وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم، كما يتراءى من ظاهر الحال، وتفسير الوارث بالباقي مروي عن سفيان وغيره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من تأخر ولادة وموتاً، قال ابن عباس: المستقدمون: كلُّ من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة[1] وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته، لأن القادر على كل شيء، لا بدَّ من علمه بما يصنعه.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٠ وهذا القول اختيار ابن جرير الطبري، وعلى هذا القول يكون المعنى: لقد أحطنا علماً بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء، من تقدَّم منهم ومن تأخر، والغرض بيان كمال علمه سبحانه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لا محالة للجزاء، وتوسيطُ الضمير للدلالة على أنه القادرُ، والمتولي لحشرهم لا غير، وكانوا يستبعدون ذلك، ويقولون: من يحي العظام وهي رميم؟ ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾ بالغ الحكمة متقن في أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسع علمه كل شيء.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ أي هذا النوع، بأَن خلقنا أصله، وأول فرد من أفراده، خلقاً بديعاً، منطوياً على خلق سائر أفراده، والإنسان من الناس اسم جنس، يقع على الذكر والأنثى، والواحد والجمع ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ ﴾ أي طين يابس، يصلصل أي يصوّت إذا نُقِرَ، كائنٍ ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ من طين تغيّر واسودَّ بطول مجاورة الماء ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي منتن متغيّر وقيل: مصبوب من سنَّ الماءَ، إذا صبَّه، أي مفرغ على هيئة الإنسان كما تُفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، وأصل الإنسان كان تراباً، فعُجن بالماء، فصار طيناً، فمكث مدة من الزمن فصار حمأً، فخلص فصار سلالةً، فصُوِّر فصار مسنوناً، ويبس فصار صلصالاً، ثم نفخ فيه الروح، فكان بشراً سوياً، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين !!.

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْجَآنَّ ﴾ اسم جمع للجن، وقيل: إبليس فإنه أبو الجن، والقول الأول أصح كما هو الظاهر من الإنسان لأن تشعب الجنس، لمّا كان من شخص واحد، خُلق من مادة واحدة، كان الجنس بأسره مخلوقاً منها، والجِنُّ والجِنَّةُ خلافُ الإنس ﴿ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل خلق الإنسان ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي الريح الحارة التي تقتل، وأكثر ما تهبُّ في النهار،

وسُميت سموماً لأنها تنفذ مسامَّ البدن، وقوله من نار باعتبار الغالب، كقوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ومساق الآية للدلالة على كمال قدرته.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ الظاهر أن المراد جميع الملائكة ملائكة السماء والأرض ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا ﴾ إنساناً والمراد به آدم عليه السلام ﴿ مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي من طين يابس متغيّر.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ فعلت فيه ما يصير به مستوياً ومعتدلاً، مستعداً لفيفان الروح فيه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ النفخ إجراء الريح من الفم وغيره، والإضافةُ تشريفٌ له، أي وأفضتُ عليه من الريح التي هي خلق من خلقي، فصار بشراً سويّاً، والروح من أمر الله جل وعلا قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: خاضت الفِرَقُ غمرة الكلام في الروح، فما ظفروا بطائل، ولا رجعوا بنائل، وفيها أكثر من ألف قول، وليس فيها قول صحيح، بل كلها قياسات عقلية، وجمهور أهل السنة أنها جسم لطيف، متصرف في البدن، حالّ فيه حلول الزيت في الزيتون، يعبَّر عنه أنا وأنت، بقاؤه في الجسم حياة، وانفصاله عنها موت، وبالجملة فإن الوقوف على حقيقة الروح أمر عسير، والطريق إليه وعرٌ، وقد جعلها الله تعالى من أعظم آياته، الدالة على جلال ذاته ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي خرّوا له ساجدين، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ لم يشذَّ منهم أحد ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ بحيث لم يتأخر واحدٌ منهم، وليس المأمور به مجرد الانحناء، بل السجود بالمعنى المتبّادر أي اسجدوا له تحية وتعظيما، أو اسجدوا لله تعالى على أنه بمنزلة القبلة.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ ﴾ استثناء منقطع لأنه كان جنياً، مغموراً بألوف من الملائكة، أي لكنْ إبليس امتنع من السجود استكباراً وعصياناً فعدَّ منهم تغليباً ﴿ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ أيْ أيُّ سببٍ لك ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي مع الملائكة الساجدين لآدم مع أنهم هم، ومنزلتهم في الشرف رفيعة، وقد سجدوا له؟ والظاهر أن قول الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطة.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ جسماني كثيف وأنا روحاني؟ ﴿ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ اقتصر ههنا على الإشارة الإجماليةِ إلى ادعاء الخيرية، اكتفاء بما صرح به حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وقد أخطأ اللعين، حيث ظن أن الفضل كله باعتبار

المادة، بل إن ملاك الفضل والكمال، هو التخلي عن المَلَكات الردية والتحلي بالمعارف الربانية.

﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾ الضمير للسماء، وأُيد بظاهر قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ مطرود من الخير، فإن من يطرد يرجم بالحجر، وقد تضمن هذا الكلام، الجواب عن شبهته، فكأنه قيل: إن المانع لك عن السجود شقاوتك، وبعدك عن الخير، لا شرف عنصرك الذي تزعمه، وفي تفسير ﴿الرجِيم﴾ بالمرجوم بالشهب، إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار، عُذّب بها في الدنيا، فهو «كعابد النَّار يهواها وتحرقه».

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ ﴾ أي هذا الطرد والتبعيد والظاهر أن المراد لعنة الله لقوله سبحانه: وإن عليك لعنتي ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ إنما حد اللعن به لأنه أبعد غاية يضربها الإنسان في كلامهم، كقوله تعالى: ﴿ما دامت السماوات والأرض﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ أي أمهلني وأخرني إلى اليوم الذي يبعث فيه آدم وذريته للجزاء، أراد أن يجد فسحة في الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد البعث، فأجابه تعالى إلى الأول دون الثاني.

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الرب سبحانه ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ أي إنك من جملة الذين أَخَّرتُ آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ وهو النفخة الأولى عند الجمهور، كما رُوي عن ابن عباس.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ أي بسبب إغوائك إيَّاي ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ ﴾ المعاصي ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لذرية آدم ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ أي لأحملنهم على الغواية ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي كلّهم.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهّرتهم من الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي.

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ ﴾ أي حقّ عليَّ أن أراعيه وأحفظه ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي لا انحراف عنه، والإشارة إلى ما تضمّنه الاستثناء هو تخليص المخلصين من إغوائه.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ تسلُّطٌ وتصرفٌ بالإغواء، والمراد من العباد جند الله المخلصون ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الاستثناء منقطع، وإن إغواءَهم ليس بطريق القهر والتسلّط، بل بطريق الاتباع له بسوء اختيارهم، وفيه تفخيم لشأن المخلَصين.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ لموعد الغاوين أو المتبعين لإبليس ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي جميعاً وهو تأكيد للضمير.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يدخلون فيها لكثرتهم، وطبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة ﴿ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾ من الأتباع ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي جزء معّين حسبما يقتضيه استعداده.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي اتقوا ربهم من الكفر والفواحش وما يخدش الإيمان من الكبائر، وظاهر الآية يقتضي حصول الجنات، لكل من اتقى من ذنبٍ واحد، إلا أن الأمة مجتمعة على أن التقوى عن الكفر، شرط في حصول هذا الحكم، فثبت أن الحكم يتناول جميع القائلين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولو كانوا من أهل المعصية ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في البساتين والحدائق الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء السلسبيل، ويحتمل أن تكون العيون هذه الأنهار، ويحتمل أن تكون منابع مغايرة لتلك الأنهار، وهو الظاهر.

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ على إرادة القول أي يُقال لهم ادخلوا هذه الجنات، وهو أمرٌ من الله تعالى بالدخول في الجنان ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ أي سالمين من الآفات والأسقام والأكدار، ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من الموت ومن زوال هذا النعيم، لا يخرجون منها أبداً كما قال سبحانه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ ويراد بالأمن في الحاضر والمستقبل.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي حقد ويطلق على الحسد ونحوه من الخصال المذمومة، الكائنة في القلب، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يُحبس أهلُ الجنة حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظُلاَماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل»(١) ومعنى الآية: طهَّر الله قلوبهم عن التحاسد في الدرجات في الجنة، ونزع سبحانه منها كل غل، وألقى فيها التواد والتحابَّ ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ وفي كونهم على سرر إشارة إلى أنهم في رفعة وكرامة، وجه بعضهم لبعض، وهذا معنى التقابل، وروي عن مجاهد أن الأسرَّة تدور بهم حيثما داروا.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب بأن لا يكون لهم ما يوجبه من الكدِّ في تحصيل ما لا بد لهم منه، لحصول كل ما يريدونه، من غير مزاولة عمل أصلاً أو بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات لكمال قوتهم ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ والمراد من «عبادي» قيل مطلقاً،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري بلاغاً، وروي في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، يُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة». تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٢ .

وقيل: الذين عبَّر عنهم بالمتقين، أي أخبرهم بأني أنا الغفور الرحيم، الساتر لذنوب عباده، الرحيم الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ أي وأخبرهم أن عذابي شديد وأليم، لمن أصرَّ على المعاصي والآثام، وفي توصيف ذاته تعالى بالرحمة والمغفرة، دون التعذيب، حيث لم يقل «وأني أنا المعذّب المؤلم» ترجيح لجانب الوعد على الوعيد، ويقوّي أمر الترجيح، الإتيان بالوصفين بصيغتي المبالغة[1]، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه، خلق الرحمة يوم خلقها، مائة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فبها يتراحمون، ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النار»[2].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ ﴾.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي الملائكة الذين بشروه بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، وإنما سموا ضيفاً لأنهم كانوا في زي الضيف.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ ﴾.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ أي اذكر وقت دخولهم عليه ﴿ فَقَالُوا۟ ﴾ عند ذلك ﴿ سَلَٰمًا ﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ

---

(١) قال في البحر ٥/٤٥٧: وجاء قوله: ﴿وأن عذابي﴾ في غاية اللطف، إذ لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذّب المؤلم، وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والمغفرة.
(٢) أخرجه البخاري ١٠/٤٣١ في الأدب ومسلم رقم ٢٧٥٢ في التوبة.

﴿وَجِلُونَ﴾ أي خائفون، وَجِل من باب تَعبِ إذا خاف، قاله عليه السلام حين امتنعوا من الأكل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ وإنما لم يذكر هنا، اكتفاء بذكره في غير هذا الموضع، كما لم يذكر هنا رد السلام عليهم.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تَخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ تعليل للنهي عن الوَجَل ﴿بِغُلَامٍ﴾ هو إسحق عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسحَاقَ﴾ والتنوين للتعظيم، أي بغلام عظيم القدر ﴿عَلِيمٍ﴾ ذو علم كثير، وفي الآية إشارة إلى أنه يكون نبياً، كما في قوله سبحانه: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسحَاق نَبيَّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ تعجب عليه السلام من أن يولد له ولد مع سنّ الكِبَر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي بأيّ شيء تبشرونني؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادةً، بشارةٌ بغير شيء، وأراد أن يتحقق من الأمر.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بما يكون لا محالة، وباليقين الذي لا لَبْس فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك، فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ، وعجوز عاقر؟ وكأنَّ مقصوده عليه السلام استعظام نعمته عزَّ وجل عليه، في ضمن الاستعجاب العادي، وليس استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، كما ينبىء عنه قول

الملائكة ﴿فَلَا تَكُن مِنَ القَانِطِينَ﴾ ولم يقولوا من الممترين، ولذلك جاء الجواب من خليل الرحمن.

﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ وَمَن يَقۡنَطُ ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط ﴿ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أي المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمة الله، وكمال علمه وقدرته، كما قال تعالى: ﴿إنه لا يَيأسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ ومراده نفي القنوط عن نفسه، أي ليس بي قنوط، وإنما الذي أقول لبيان حالي، لفيضان تلك النعمة الجليلة، والقنوط بالضمِّ: اليأسُ من رحمة الله تعالى.

﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ ﴾؟ الخطب الأمر الشديد ينزل بالإنسان ﴿ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ أيها الرسل الكرام ملائكة الرحمن؟ أي أخبروني ما أمركم الهامُّ العظيم الذي جئتم له سوى البشرى؟.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾ هم قوم لوط، وُصفوا بالإجرام ذماً لهم لفعلهم الشنيع القبيح.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي إلاَّ أتباع لوطٍ وأهله المؤمنين، فسننجيهم من العذاب ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ ﴾ أي ممّا يُعذَّب به القوم ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ أي لوط وآله منجون كافة، فلا ينزل بهم شيء من العذاب.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ استثناء من آل لوط ﴿ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين مع الكفرة، لتهلك معهم، فإن قيل: كيف أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، مع أنه لله تعالى؟ أجيب لما لهم من الاختصاص بالله تعالى، كما يقول خاصة الملك دبَّرنا كذا، والمدبِّر هو المِلكُ.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ شروع في بيان إهلاك المجرمين، وتنجية آل لوط، أي فلما أتى رسل الله لوطاً عليه السلام.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ إنما قاله عليه السلام حين ضاقت عليه الحيل، ولم يشاهد من الضيوف عند مقاساة الشدائد من قومه، الذين يريدون بهم ما يريدون، ما هو المعتاد من الإعانة، حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعة، لا أنه قاله عند ورودهم له، على معنى إنكم قوم تنكركم نفسي، وتنفر منكم ولا أعرفكم.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به، فيمترون ويكذّبونك فيه، وبيّنوا له جلية الأمر، فـ «بل» للإضراب عما حسبه من ترك النصرة عليه، والمعنى: ما خذلناك بل جئناك بما يدمّرهم، من العذاب الذي يشكُّون فيه.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ باليقين في عذابهم ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي صادقون فيما نقول، عبّر عنه بذلك للتنصيص على نفي الامتراء منه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي في طائفة من الليل، أو في آخره ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي وكن على أثرهم، تذودُهم وتسرع بهم، وتَطَّلِعُ على حالهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ ﴾ أي منك ومنهم ﴿ أَحَدٌ ﴾ فيرى ما وراءه من الهول، أو فيصيبه العذاب، فالالتفات على ظاهره، وخلاصة ذلك، وفائدة الأمر والنهي: أن يهاجر على وجه يمكنه وأهله، وفيه إرشاد إلى ما هو أدخل في الحزم للسير، وأدب المسافرة، وتنبيه على كيفية السفر الحقيقي، فلله تعالى در التنزيل!! والطائفة التي لا تحصى ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ إلى حيث أمركم الله بالمضي إليه.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ أي أوحينا ﴿ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ أي دابر هؤلاء المجرمين أنهم يستأصلون عن آخرهم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي وقت دخولهم في الصبح، حتى لا يبقى منهم أحد، وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وإبهامه أولاً ثم تفسيره، من الدلالة على فخامة الأمر ما لا يخفى.

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ المدينة «سدوم» وأهلها أولئك القوم المجرمون، والتعبير عنهم بذلك للإشارة إلى كثرتهم، مع ما فيه من الإشارة إلى فظاعة حالهم، فإن اللائق بأهل المدينة أن يكرموا الغرباء، ويحسنوا المعاملة معهم، فهم عدلوا عن هذا اللائق، بل قصدوا الواردين بالفاحشة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، أي جاء أهل سدوم منزل لوط عليه السلام ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم، أي يبشّر بعضهم بعضاً، والاستبشار إظهارُ الفرح والسرور، إذ قيل لهم إن عنده أضياف في غاية الحسن، فطمعوا فيهم، قاتلهم الله.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ قاله عليه السلام لأنهم في زيّ الضيف، والتأكيد ليس لإنكارهم، بل لحمايتهم من السوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أي فلا تفضحوني عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء، فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مباشرتكم العمل القبيح ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تذلوني بسببهم، من الخزي وهو الهوان، وإنما لم يصرّح بالفاحشة لرعاية مزيد الأدب مع ضيفه، كما قيل: ويرى الحر الموت ألذَّ طعماً منه.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ من أن تجير منهم أحداً، وتمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان ينهاهم عن ذلك وكانوا

أوعدوه وقالوا «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[1] ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي نساء القوم تزوّجوا بهن بطريق الحلال، ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم من الله تعالى بعمر نبينا ﷺ، على ما عليه جمهور المفسرين، عن ابن عباس قال: «ما خلقَ اللهُ نفساً أكرمَ عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله سبحانه أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾»[2] «العَمْرُ» بالفتح: البقاءُ، والحياةُ، قال الأعشى: «لَعَمْر من جَعَلَ الشُّهورَ عَلَامَة» ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي لفي غوايتهم التي أزالت عقولهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون، فكيف يسمعون نصحك؟.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ العظيمة الهائلة صيحة جبريل قال ابن جريج: الصيحةُ مثل الصاعقة، فكل شيء أُهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في شروق الشمس، أي وقت إشراق الشمس، والجمع بين «مصبحين» و «مشرقين» باعتبار الابتداء والانتهاء، بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح، وانتهاؤه عند الشروق، وقوله تعالى: ﴿مقطوع﴾ بمعنى يُقطع عن قريب.

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٦٧.

(٢) أخرجه البيهقي، وأبو نعيم، وابن مردويه عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٥.

﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي قلبنا بهم دورهم، فجعلنا أعالي المنازل أسافلها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر، من طين متحجر، طُبخ بالنار، والتعبيرُ بالمطر يوحي بالشدَّة والكثرة، كأنه غيثٌ ماطر، وبركان ثائر!!.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر من القصة ﴿ لَآيَـٰتٍ ﴾ علامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قيل للناظرين المعتبرين المتأملين بعين الفكر والبصيرة، أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «اتَّقُوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى، ثم قرأ الآية»[1] وكان بعض المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام جرياً على طريق إياس بن معاوية.

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي القرى ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها في ديار المعذَّبين.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم يعرفون أنَّ ما حاق بهم إنما حاق لسوء صنيعهم، وأما غيرهم فيحملون ذلك على اتفاق، أو على الأوضاع الفلكية.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٢٧ والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٣.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ وهو قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة، فبعثه الله إليهم فكذبوه، فأهلكوا بالظلة، والأيكةُ: الشجرة المتكاثفة ﴿ لَظَٰلِمِينَ ﴾ متجاوزين الحد في البغي والعصيان.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ جازيناهم على جنايتهم بالعذاب، روي عن قتادة أنه قال: إنه جلَّ شأنه سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام، ثم بعث سبحانه عليهم سحابة، فجعلوا يلتمسون الرَّوْح منها، فبعث عليهم منها ناراً فأكلتهم، فهو عذاب يوم الظلة ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أي محلَّيْ قوم لوط، وقوم شعيب ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتمُّ به، سُمِّي به الطريق لأنها مما يؤتم به لأن المسافر يتبع به إلى الموضع الذي يريده.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ﴾ يعني ثمود، والحجر: اسم واد بين المدينة والشام، كان يسكنه ثمود عن أبي هريرة قال: لمَّا أتى ﷺ الحجر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلاَّ أن تكونوا باكين، ثم قنَّع رأسه، وأسرع السير، حتى جاوز الوادي»(١) ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ حين كذبوا رسولهم صالحا عليه السلام، فإن من كذب واحداً من رسل الله سبحانه، فقد كذب الجميع، لاتفاقهم على التوحيد، والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/٣٧٨ في الأنبياء، ومسلم رقم ٢٩٨٠ في الزهد.

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي معجزاتنا كالناقة، وسقيها، وشربها، ودَرِّها، فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون، من شقاوتهم وضلالهم.

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ من الانهدام والسقوط، ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء لها، لأنها محصَّنة في الجبال، وقيل: آمنين من الموت، لاغترارهم بطول الأعمار، ومن نزول العذاب بهم.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب وقت الصباح، ووقع في سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ووفق بينهما أن الصيحة تفضي إلى الرجفة.

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ لم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ أي ملتبساً بالحق، والحكمة والمصلحة، بحيث لا يلائم استمرار الفساد، واستقرار الشرور،

ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء، دفعاً لفسادهم، وإظهاراً للحق والعدل والإنصاف ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقم الله لك منهم، فالجملة الأولى إشارة إلى عذابهم الدنيوي، والثانية إلى عقابهم الأخروي، وفي كلتا الجملتين تسلية له ﷺ ﴿فَٱصْفَحِ﴾ أي أعرض عنهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ تحمَّلْ أذيتهم، ولا تعجل بالانتقام منهم، والصفح أبلغ من العفو، وهو ما خلا عن عتاب، وفي أمره ﷺ بذلك، إشارة إلى أنه ﷺ قادر على الانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وحاصل أمره ﷺ بمخالقتهم بخلق رضي، وحلم وتأن، بأن ينذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال، وعلى هذا فالآية غير منسوخة، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنها منسوخة بآية السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالهم، فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تَكِلَ جميع الأمور إليه، ليحكم بينكم، وهو الخلاق العليم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ أي سبع آيات، وهي الفاتحة، روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: قال ﷺ: «الحمد لله رب العالمين هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته[(١)]» وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن، وأم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٨١.

الكتاب، والسبعُ المثاني»[1] والمثاني بيان للسبع وهو جمع مثنى بمعنى مردَّد ومكرّر، وإطلاق ذلك على الفاتحة لأنها تكرر قراءتها في الصلاة ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أي ولقد آتيناك القرآن العظيم فهو من عطف الكل على الجزء.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها، ومحاسنها وزهرتها ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة: اليهود، والنصارى، والمشركين، فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر، لا يعبأ به أصلاً، والخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته، لأنه كان أزهد الناس في الدنيا ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا، وكان ﷺ يودُّ أن يؤمن كلُّ من بُعث إليه، ويشق عليه بقاء الكفرة على كفرهم، ولذا قيل ﴿وَلاَ تحزَن عَليهم﴾ أي لا تتأثر على عدم إيمانهم وليس المعنى لا تحزن على تمتعهم بذلك ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضعْ لهم وارفق بهم، وخفضُ الجناح: كناية عن اللين والرفق.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ .

﴿وَقُلْ﴾ يا رسول الله لهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي المنذر، المظهرُ لنزول عذاب الله، إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ١٤٥٨ والترمذي رقم ٣١٢٤ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ أي أنزلنا عليك القرآن، كما أنزلنا على أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ أي قسموه إلى حق وباطل، حيث قالوا عناداً وعداوة، بعضُه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، وهذا مروي عن ابن عباس[1] والحسن، وجوز أن يُراد بالمقتسمين جماعة من كفرة قريش، أرسلهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، ليقفوا على مداخل طرق مكة، وينفروا الناسَ عن الإيمان برسول الله ﷺ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، والعضةُ: القطعةُ من الشيء والجزءُ منه[2] فالمعنى: جعلوا القرآن أجزاءً، وفي التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية، التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح، المستلزم لإزالة حياته، وإبطال اسمه للتنصيص على قبح ما فعلوه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي لنسألنَّ يوم القيامة أصناف الكفرة مطلقاً، المتآمرين وغيرهم، سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من قول وفعل، ليجزيهم جزاءاً موفوراً.

---

(١) روى البخاري ٨/ ٣٨٢ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جعلوا القرآنَ عِضِين﴾ قال: «هم أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ جزَّءوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه».

(٢) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥٥: عِضِينَ مأخوذ من الأعضاء أي فرَّقوه فرقاً وجعلوه أعضاء، وفي الصحاح للجوهري: أصله عِضْوة من عضوتُه أي فرَّقته، لأن المشركين فرَّقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكهانة، وشعراً.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فاجهر به، من صَدَع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، ولم يزل ﷺ مستخفياً قبل نزول ذلك، فلما نزلت خرج هو وأصحابه، روي ذلك عن ابن مسعود ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فلا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم.

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ بتدميرهم وإهلاكهم، ودلَّ القرآن الكريم على أن الله تعالى أفناهم، وأزال كيدهم، وكانوا خمسة من رؤساء الطغيان، دعا عليهم الرسول ﷺ فأهلكهم الله وكفى رسوله شرَّهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ ﴾ وصفهم بذلك تسلية لرسول الله ﷺ بإعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به ﷺ، بل اجترؤوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله تعالى ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين.

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ من الشرك، والطعن في القرآن، والاستهزاء به وبالرسول، وكان يضيق صدره ﷺ لأن الجبلَّة البشرية تضعف عن الاحتمال.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر بالتسبيح، متلبِّساً بحمده، أي قل: «سبحان الله وبحمده» يكفك، ويكشف الغمَّ عنك ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي المصلين، وفي أمره ﷺ بما ذكر إرشاد إلى ما يكشف به الغم الذي يجده، ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة، جيء بالأمر بها، وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة، وفي الآية إشارة إلى الترغيب بالجماعة فيها.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ أي دم على ما أنت عليه، من عبادته تعالى، وإيثارُ الإظهار لتأكيد إظهار اللطف به ﷺ ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ أي الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي، والمعنى: فاعبده ما دمتَ حياً، ولا تُخِلَّ بالعبادة لحظة، فليس المراد ما زعمه بعض الملحِدين مما يسمونه بالكشف والشهود، وقالوا: إن العبد متى حصَّل ذلك، سقط عنه التكليف بالعبادة، وهي ليست إلا للمحجوبين، ولقد خرجوا بذلك من الدين، وجماعةِ المسلمين، ولم يزل ﷺ ما دام حياً آتياً بمراسم العبادات، فيقال: إنه لم يأته ﷺ اليقين حتى توفي؟ وافترى بعضهم أنه ﷺ لم يتضح له ليلة المعراج صبح الكشف والشهود، ولا يتجاسر على ذلك من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، أو حبة خردل من عقل، ينتظم به في سلك الإنسان، ونسأل الله سبحانه أن يحفظنا من سوء القضاء، ويمنَّ علينا بالتوفيق إلى ما يحبُّ ويرضى، وصلى الله على نبينا محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر»

* * *